كونفوشيوس (٥٥١-٤٧٩ق.م)

أخلص لحلمه ... فأخلصوا له

"كن أنت التغيير الذي تريده في العالم"

- الماهاتما غاندي -

يعد كونفوشيوس أكثر الفلاسفة تأثيراً في الحضارة الصينية العريقة، وهو يعد من القلائل الذين أحدثوا تغيراً جذرياً على مسرح الأحداث في التاريخ. اختاره د. مايكل هارت في كتابه الشهير "المئة الأوائل" كخامس أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ البشري.

ولد كونفوشيوس في إمارة لو المعروفة الآن باسم إقليم شندونج بالصين. وكان اسمه الحقيقي كونج كيو. أما الاسم كونفوشيوس فهو شكل لاتيني من لقب كونجفوزي الصغير ومعناه المعلم الكبير كونج. وقد مات أبوه وهو لا يزال طفلاً في الثلاثة تاركاً ولده وزوجته في فقر شديد، مما دفع الأم للعمل لتوفر قوتها وقوت ابنها الصغير.

وفي ذلك الوقت، كان الصراع الدائم يدور بين كثير من الولايات التي شكلت الصين. غيّر التحول السياسي السريع من بناء المجتمع الصيني، ولم يعد كثير من الناس يحترمون معايير السلوك الموضوعة. وخَشي كونفوشيوس أن يؤدي هذا التهديد للحياة الاجتماعية المنضبطة إلى تدمير الحضارة.

بدأ كونفوشيوس التحرك لدرء هذا الخطر، وحاول أن يكون مستشارًا لحاكم حكيم؛ ليجعل من هذا المنصب منبراً يمكنه من نشر أفكاره عن إصلاح المجتمع ويضعها موضع التنفيذ، إلاّ أنه أخفق في ذلك. فأخذ يعمل في وظائف رسمية ثانوية. إلاّ أنه تركها ليمضي ستة عشر عاماً من عمره يعظ الناس متنقلاً من مدينة إلى مدينة، وقد التف حوله عدد كبير من الناس.

ولما بلغ الخمسين من عمره عاد إلى العمل في الحكومة. ولكن استطاع بعض الحاقدين عليه أن يطردوه منها، فترك لهم البلاد وأمضى بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً مبشراً متجولاً. ثم عاد ليقيم في بلدته خمس سنوات الأخيرة من عمره حيث توفي فيها عام ٤٧٩ ق. م وهو غير معروف بصورة جيدة في ربوع الصين.

ولا تعد تعاليم كونفوشيوس ديناً كما يزعم بعضهم؛ وذلك لأنه لم يتحدث عن إله أو دار آخرة، وبالرغم من ذلك فإنه أكثر الفلاسفة تأثيرًا في التاريخ الصيني. وظلت تعاليم كونفوشيوس ذات أثر قوي ومتفرد في المجتمع الصيني طوال الفترة من القرن الثاني قبل الميلاد وحتى اليوم. وهذه التعاليم التي أطلق عليها الكونفوشية تؤكد على الحاجة إلى تنمية الشخصية الأخلاقية وتوسيع المسؤولية، والواقع أنه ليس هناك كتاب ألّفه كونفوشيوس بشكل محدَّد. فالحقيقة أن أتباعه قاموا بتسجيل مناقشاته وأقواله في كتاب سمّي "منتخبات أدبية" أو "أحاديث".

ويتلخص مذهب كونفوشيوس بأنه طريقة في الحياة الخاصة والسلوك الاجتماعي والسلوك السياسي. ومذهبه يقوم على الحب، حب الناس وحسن معاملتهم والرقة في الحديث والأدب في الخطاب. ونظافة اليد واللسان. وأيضاً يقوم مذهبه على احترام الأكبر سناً والأكبر مقاماً، وعلى تقديس الأسرة وعلى طاعة الصغير للكبير وطاعة المرأة لزوجها. ولكنه في الوقت نفسه يكره الطغيان والاستبداد. وهو يؤمن بأن الحكومة إنما أنشئت لخدمة الشعب وليس العكس. وأن الحاكم يجب أن تتكون عنده قيم أخلاقية ومُثل عليا. ومن الحكم التي اتخذها كونفوشيوس قاعدة لسلوكه تلك الحكمة القديمة التي تقول: "لا تفعل للآخرين ما لا ترغبه لنفسك". وكان كونفوشيوس محافظاً في نظرته إلى الحياة، فهو يرى بأن العصر الذهبي للإنسانية كان وراءها، أي كان في الماضي. وهو لذلك كان يحن إلى الماضي ويدعو الناس إلى الحياة فيه. وليس للكونفوشية رجال دين، كما أنها لا تدعو إلى عبادة إله أو آلهة، ولا تنادي بوجود حياة بعد الموت. وربما ذهب بعض أتباعها إلى اعتبار الكونفوشية مُرْشِدًا إلى الفضيلة والحكم الجيد.

وفي زمن العائلة الصينية المالكة "هان" درج الأباطرة على اختيار موظفي الدولة بطرح امتحان يعتمد إلى حد كبير على معرفة تعاليم وآداب كونفوشيوس، واليوم جعلت الحكومة الصينية تعاليم الكونفوشية الفلسفة الرسمية للدولة. والواقع أن ملايين الناس في الصين والبلاد القريبة منها، مثل اليابان وكوريا وفيتنام، يبجلون كونفوشيوس بتلك الطريقة التي يبجل بها الناس مؤسسي الفلسفات.